

ناصر قنديل

حديث الجمعة هذا الأسبوع في «قالت له»، حبّ وعتاب، وزواج وحبّ في منتصف الطريق. وفي «رياضيات الكلام»، الغموض والحياة والأقدار. و«حدث معي» و«الصباحات» للراحل شاعر العرب وفلسطيني سميح القاسم. أما «ذكر إن تنفع الذكرى»، فلمعادلاتٍ الدرغ في وجه «القاعدة» ولقدرات المقاومة. و«المختصر المفيد» بلا لف ودوران لمن فشلوا في الحرب على سورية بالتحالف مع «القاعدة» هل تجزّبون الحرب على القاعدة بالتحالف مع سورية؟

مختصر مفيد

● النتيجة الوحيدة للتحالف مع القاعدة كانت، أنّ القاعدة ربحت، فممت وكبرت وتموّلت وتنظمت، واستقدمت قواها من أنحاء الدنيا، كما حدث في أفغانستان قبل عقود، وصارت تتوسّع. ووقع جزء من سورية والعراق في قبضتها، وأعلنت دولة الخلافة، وتحوّلت من أداة تحت السيطرة، إلى لاعب له حساباته ومشروع وخطته.

● اليوم، الكلّ مذمور من حضور القاعدة وخطتها، والكل مرّة أخرى يلف ويدور ويتحدّث عن خطط ومشاريع لمحاربة الإرهاب ومحاصرة نموّ القاعدة. ويتحدّث عن قرارات دولية وحصار ماليّ وأمنيّ وضربات عسكرية. والسؤال ببساطة هو: إذا كانت هزيمة الدولة السورية مستحيلة بالتحالف الذي قام بين أميركا وحلف حربها مع القاعدة، فهل يستطيع هذا الحلف أن ينتصر على سورية من دون القاعدة؟

● إذا كان الانتصار على سورية مستحيلًا من دون القاعدة، لبديل أنه مستحيل بالتحالف معها، وإذا كانت القاعدة عدو مشترك لسورية وللمتحالفين للحرب عليها، وإذا كانت الأولوية اليوم هي للحرب على الإرهاب كما يتحدّث أعداء سورية، الذين يُحّ صوتها وهي تُسمعون صراخها بأن الإرهاب سيأكل الأخضر واليابس، وأنهم سيندمون ويكتشفون أنهم يتجرّعون الكأس المرّة التي حاولوا أن يسبقوا سورية منها. وإذا كانت سورية منطقيًا قادرة على الصمود بحربها على القاعدة بينما القاعدة تشتبك مع كل هذا الحلف، الذي شغلّ القاعدة سابقًا، طالما نجحت بالصمود وهي تشتبك مع القاعدة وهذا الحلف نفسه يشارك القاعدة الحرب، فهل يستطيع حلف الحرب على سورية هزيمة القاعدة من دون سورية؟

● رهانات حلف واشنطن ومن معها على جيشها جرى اختبارها في الفلوجة سابقًا بالجيش الأميركي وفشلت. والرهان على الجيوش الإقليمية لم يكن أفضل حالًا، سواء بالجيش العراقي الذي بناه بول بريمر بعد غزو العراق وانهار في ساعات أمام «داعش»، أو الجيش السعودي الذي لم يستطع الصمود في وجه قتال مشابه مع الحوثيين على الحدود اليمنية. السعودية. وأخيرًا البشمركة الكردية التي انهارت وتركت أربيل والمصالح الأميركية الأمنية والاقتصادية في مهبط الريح، عندما هاجم «داعش». ولولا السداد الناري الأميركي العاجل من الجوّ لاحتاج تبخر ما بني خلال سنوات في أربيل، ساعات قليلة.

● ليس هناك إلا الجيش السوري وحزب الله كقوى قادرة ومختبرة، وتملك الروح المعنوية اللازمة للفوز بهذه الحرب. ومهما استمرّ اللّف والدوران، ثمة حقيقة بالمختصر المفيد، هي أنه لا خلاص من هذا الوحش الذي يجتاح المنطقة، والذي يلعب الزمن لمصلحته، فكلما مرّ تجذّر وصار أقوى، إلا إذا أقرّ بقيادة سورية وحزب الله الحرب على الإرهاب، وجرى التعامل معها بما يتناسب مع الإقرار بهذه المكانة، وقدسية هذه المهمة، وتسديد الفواتير المتوجبة من الاعتراف والاعتذار.

● تدور دواليب الصراع في المنطقة حول معادلة صارت واضحة ومتبلورة، من بوابة الحرب على سورية التي خاضتها وتورّطت فيها عشرات الدول بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، وكانت فرنسا وقطر والسعودية أدواتها الأشدّ نشاطًا. وحيث كان لا بدّ من العمل لاستنزاف قدرات الدولة السورية وجيشها وشعبها وأجهزة أمنها ومواردها المالية والاقتصادية، وقدره حلفائها على الصبر والوقوف معها، والثبات على تمسّكهم بدعمها. وأمام دولة بقوة الدولة السورية وتماسكها متماسك حلفائها، كان المطلوب أمام ما يدركه وما اختبره أركان حلف الحرب على سورية، من هشاشة بني المعارضة التقليدية من جهة، وفشل الأساليب الإعلامية والأمنية التي فعلت فعلها في بلاد عربية أخرى من جهة ثانية، وكلفة التدخّل العسكري المباشر الذي اعتمد في ليبيا من جهة ثالثة، من اللجوء إلى البديل الخطر القادر على الصمود وقيادة حرب الاستنزاف المنشودة وهو تنظيم القاعدة.

● التحالف مع تنظيم القاعدة ومكوّناته ومفرداته كان قراراً متخذاً بكامل الوعي، ولم يكن حضور القاعدة ثمرة ونتيجة لصدام طال أمده عرفت القاعدة أن تستثمره وتستغلّ التناقضات التي ولدها، وتنتج حضورها على تناقضات عدائية بين فريقين من الأقوياء كما يحلو للبعض الحديث.

● التحالف مع تنظيم القاعدة تمّ بوحي كامل وبقرار، لاستنزاف سورية، لأن القاعدة بمفرداتها المتعدّدة، هي الأقدر على تحمّل بذل الدماء، إذ لا تتحمّل الجيوش والتنظيمات التي يشغلها الغرب والحكومات المتورّطة معه في الحرب على سورية.

● التحالف مع القاعدة وفكرها المتطرّف المؤسّس على المدرسة التكفيرية، ينطلق من كون التعبئة على الدولة السورية لم تملك أيّ قدرة على إنتاج عناوين جذبة تعبويًا في السياسة. فصار التكفير والتحريض المذهبي اللذين تجيد القاعدة الذهاب فيهما إلى النهاية، السلعة الوحيدة القابلة للتداول في سوق التعبئة ضد الدولة السورية.

● التحالف مع القاعدة جرى بوحي كامل، وبخطة، ووُظفت له موارد مالية وسفارات ووُعدت لأجله صفقات في السجون، ونُقل لتنفيذ مئات المنضوين تحت لواء القاعدة عبر بلاد وبلاد، وجرى تجميعهم على الحدود في كل من تركيا والأردن ولبنان، وتولت إيوائهم وتنظيمهم أجهزة استخبارات محترفة، ووُضعت في خدمتهم الأسلحة وخطوط الإمداد والملاذات اللوجستية اللازمة، وكل دعم كان يحكى عن تقديمه إلى معارضة سورية مسلحة، كان يدرك أصحابه أنه يذهب إلى القاعدة. ولذلك كان الإحجام الغربي عن تسليم أنواع محدّدة من السلاح والتقنيات لكل مسميات المعارضة السورية.

● فشلت الحرب وفشلت الخطة، وبقيت سورية واقفة على قدميها، واستردّت زمام المبادرة في الحرب، وبقي حلفاؤها مخلصين وأوفياء بقيمونات الحسابات الصحيحة، ويرون سقوطها بدايةً لخطر كبير على الاستقرار في العالم، وتسليماً لجغرافيا خطيرة لقوى الإرهاب بدواعي الحقد والكيد واللاسياسة.

صباحات

سميح الصيف القاسم والضيف القاسم

رحلت نسمة البحر ما بين عكا وحيفا
رحلت كريشة عصفور يغادرنا صيفا
رحلت كمالك كان يحلّ علينا ضيفا
رحلت وفلسطين تنبض الحبّ والحرب وأهانج الموت
ويبقى في القلب نبض ويبقى صدى الصوت
قال سميح القاسم
قال بصوت حاسم
قال يا عدوّ الشمس لن أساوم
قال لأخر نبض في عروقي سأقاوم
قال وقال منتصب القامة أمشي
وعلى كتفي نعشي
قال للعدوّ تقدّم
ستفتح عليك جهنّم

هو الذي قال في تموز اقصنا يا سيّد الحرب العربي
هذا عنواني دعني أحسّ حرارة صاروخ يستهدف محتلاً قربي
في الحرب السورية قال يريدون تدمير آخر جيش للعرب
وقال إن سيفه يتأر وسيوف الجيوش الأخرى من خشب
وأنه بعد الأسد سيكون قائداً شيء من أبي لهب
يرحل والغرسان مثله على صهوة الكلام باقون
هنا باقون نحرس ظلّ التين والزيتون
ناكل التراب إن جعنا وإن عطشنا نعصر الصخر
إنّا هنا باقون فلتشربوا البحر
للقاد من ثنايا الكلمات
وحامل أنين الأمهات

لسيف من ضوء لا تبصره العيون
وبرق من مطر تشرين وكانون
وحزّ لا يبرد كشمس تموز
شبابنا يستشهدون لكنهم لا يشيخون
أما دولكم فقد وُلدت عجوزاً وبقيت عجوز
السميح القاسم العالم إلى نصفين

أو صقّين
صفّ يقابل صفّاً
أو كفّ يقابل كفّاً
والقاسم قسّام بينهما له اسم واحد
هنا مع وهناك ضدّ ولا رمادي
من ليس في صفّ الحقّ شاهد
صار في صفّ الأعداي
القاسم اسمه فلسطين
والقسّام اسمه فلسطين
في القسّام رجل اسمه الضيف
والقاسم رحيل الصيف

قالت له

قالت له: أحبك حتى النبض الأخير في قلبي. فقال لها: الحبّ لا يعترف بالمكان ولا الزمان، وهو ضوء المسافات الآتي من بعيد كقمر ليل صيف عذري، كلما أطلّ القمر في سماء قرية أو مدينة، أرى في شفّيتك ابتسامة الصباح. وكلما طلعت شمس في كبد الصحراء أو من وراء بحر أو جبل، ترين بريق عيني.

قالت له: إنّ عقدة «أوديب» وفقاً لفرويد تصيب الأبناء والبنات إزاء الآباء والأمهات، فهل الزواج خدعة الآباء والأمهات لأولادهم بزينة وأعراس، لتركهم يتدوّقون طعم الألم الذي تنكروا مذاقه في حلوق الآباء والأمهات، وظلّوا سنيّ حياتهم يعاملونهم كأنّ كل ما يفعلونه لا لجلهم واجبّ؟

قالت له: لا مئةً وجميل فيه، لأنه فاتورة متصلة. مدى العمر. بمتعة عابرة كعقوبة الزمن على التسرّع؟

فقال: لذلك الأنكباء يخوضون الزواج كشركة مدروسة التفاصيل، ويضعون الأحلام الوردية جانباً، ولا يساومون على ما يسعى الزواج إلى انتزاعه، وهو الحرية بإسم الوفاء والإخلاص، وشرّعت له النصوص. فقالت: وفي الحبّ؟

فقال: أحادية لا تشارك أحداً، ولا ينصّ عليها عقد، ولا تحتاج عقد الذنب إلى الإلزام، فكل شيء سواد أمام بياضها.

قالت: أتحتبيّ أم تتزوّجني؟

فقال: نصفٌ بنصف كي نعدل.
فقالت: أيّهما قبل الآخر؟
فقال لها: ندع الزمن يقرّر.
فقالت: هل تستطيع الأفضل إن بدأت بالأوسأ؟ أنت تكذب. ومضت تقول: زواج أساسه شراكة طمع للحب ربما يكون هو الجواب، لا حبّ يتطلّع إلى زواج.
قالت له: أتحتبيّ؟ فقال: لك كلّ الحبّ، فقالت: إذا تدعني أقبلّ عمامة السيد وأكون لك؟ فقال: لا تتسرّعي لأنني أريدك قبل ذلك اليوم وحتيّ يأتي ذلك اليوم، فقد طلبت اللقاء منذ زمن ولما يأتي موعد مروري للبركة بين يديه، سيكون عيد قبولي عنده أن أكون استشهائياً.

ذكر إن تنفع الذكرى

قبل سنةٍ بالتمام والكمال، كتبت عن وظيفة القاعدة كخنجر في ظهر المقاومة ومعادلة الردع التي صاغها السيد حسن نصر الله، وللتذكير، فالمعادلة قائمة وتتوسّع مفاعيلها من الرمادي إلى بيروت.

ردع السيّد

● القاعدة تعلن شعارها من ديالي إلى بيروت وتعتبر أنّ الأولوية صارت قتال حزب الله ولم تعد في سورية.

● القاعدة لا تفعل ذلك لأن خطاب سيد المقاومة جلب إلى لبنان حرباً كان يغني عنها، بل لتقدم دليل جديد على أنها تنفذ أولويات حروب «إسرائيل».

● الحملة على حزب الله من ساعة التحضير إلى القرار الخليجي بذريعة البحرين وما أسموه خلايا حزب الله هناك، إلى ساعة صدور القرار بحجة التصير ومركزتها.

● حكام الخليج وأوروبا والقاعدة وأولوية واحدة تحدّدها «إسرائيل» وتنطق بها واشنطن فتصدر كامر عمليات.

● الحرب المفتوحة أعلنت من القاعدة، وسيد المقاومة حسمها بقوله لو اقتضى الأمر لقتال التكفيريين أن أذهب أنا وحزب الله كله لنقاتل في سورية، سنفعل.

● الاحتياط الأخير الذي لم يستخدم بعد يتمثّل بالقاعدة. فما نراه الفصول الأخيرة من حرب تموز.

● لم ينتبهوا أنهم بوضع القاعدة جيشاً نظامياً لحربهم، يخوضون حرباً نفسية لحساب حزب الله، ستجعله المحبوب بعيون شعوبهم.

● السيد صنع الردع بخطابه، فإن بقيت سورية ساحة حربهم، ذاهيون إليهم. وإن جاؤوا إلينا، حسمت سورية حربها بيئسر وسهولة. نحن منتصرون بكل حال.

رياضيات في الكلام

يحسدّم الناس على ما لديهم.
- لكل شيء في الحياة من مصادر القوة سقف. ولا يمكن أن ننال السقف في كل شيء، فإن أحسنّا التصرف تحكّمنا نحن بتوزيع الاختيار، وإن تساهلنا اختارت لنا الأقدار.
- التنافس بين القيم السامية لا يتوقف في المجتمعات وداخل النفس البشرية، ودائمًا تبقى الحرية بلا منافس، تتقدم وتجاور ولا تخار من سواها. فاجعل مقياس إسهامك الغير مقدار الحرية التي يشعرون بها بوجودك. إذا شعرت أنّ المزيد من الاقتراب بمن تحب صار سبباً للألم، فلا تضع العقل حكماً، بل ابحث لجواب عن سؤال كيف نصنع السعادة ونحن نجلب الألم فذكاء المسافة بعض من الحب.
- من يمسح دموعه من عين حزينة ويكتف بلا انتظار رؤية الابتسامة، يكتشف أنه جلب الفرح لنفسه.

ثمة أشخاص تشعر بوجودهم نعمةً في حياتنا مهما ضاقت فسحة الأمل، ونفقد سحر وجودهم عندما نساءل عن السبب.
كلّما ازداد كمالنا عن غموض الحياة كلّما نخفي تهرباً من أمر واضح، وكلّما تحدّثنا عن آلام الخيارات في الحياة كلّما نعلم أننا نسبب الألم لأحد لا نريد الاعتراف به. وكلّما قلنا إنّ الحياة أقدار مرسومة كان قرار مديرٍ في رأسنا قيد النضج. وكلّما قلنا إنّنا نستعيد الحرية التي فقدناها كلّنا نسلب بذكاء حرية أحد. والشجعان وحدهم يقولون إن الحياة واضحة وهم فرحون بوضوح مكانتهم فيها. وإن الآلام مصدر فرح خفيّ بتذكيرنا بضعفنا كبشر، وإن السيطرة على الأقدار بفتح ثغرة ضوء في الجدار. وإن التنازل عن مقدار من الحرّية يزيد وينقص، هو شرط التشارك مع آخرين لهم الحقّ بمثل ما لنا من الحرّية. أسوأ الأحران والآلام تلك التي يحسّها بصدق من

حدث معي

قبل ثلاث سنوات، كنّا نفكّر بتعميم خدمة شبكة «توب نيوز» إلى فلسطين المحتلة عبر الموبايل، وبالتشاور مع الصديقة المناضلة الرائعة صابرين دياب. اتفقنا أن تكون «توب نيوز»، سميح القاسم وناصر قنديل، وكم كنت فرحاً عندما طلبتني صابرين على الهاتف من بيته، وهو علي فراشه تزفّ لي نبأ ترحيبه وحماسه، وتكلّمت معه طويلاً، وحملني الحب والتحيات إلى سيد المقاومة والرئيس الأسد، واتفقنا لصعوبة الكتابة لديه بسبب المرض أنه سيملي مقالته «كتب سميح القاسم» على الصديقة صابرين لتكتبها... وبدأنا الإجراءات لإطلاق الشبكة. لكن أستاذنا الكبير دخل مراحل المرض الصعبة... ومثل الأعمال الكبرى لا تليق إلا بالكبار... وكان قدرنا أن يكون هو والحبيب بسام الشكعة أطال الله بعمره، في وضع صحّي لا يسمح بالكتابة، لكن كلماتهم تكتب اليوم بالصواريخ بأيدي المقاومين أجمل القصائد والنصوص.